

المثل الديمقراطية والواقع

سير هالفورد ماكندر

بقلم: الدكتور محمد السيد غراب
أستاذ الجغرافيا بجامعة القاهرة

الكشف والرحلات الى مرحلة لبحث المنهجى المنظم . ومن ثم دخولها الجمعية فرعاً من فروع المعرفة والعلم الأصولى . وكان ماكندر أول أستاذ للجغرافيا فى اكسفورد (١٨٨٧ - ١٩٠٥) وفى بريطانيا كلها . وهو فى السادسة والعشرين من عمره .

وقد قدم ماكندر تعريفين للجغرافيا ، يختلف أحدهما عن الآخر اختلاف طفيف فهى « العلم الذى يجعل همه الرئيسى تتبع تداخل الانسان وهو فرد فى المجتمع فى البيئة التى تختلف من مكان الى آخر » . وهى « علم التوزيع ، أى العلم الذى يتبع نسق الأشياء عامة على سطح الأرض » . وقد تابع ماكندر التعريف الاول فبعد ، حيث أعلن أن « ليس ثمة جغرافيا سياسية معقولة rational لاتبنى على أساس معين من الجغرافيا الطبيعية . ولا تتبعها » . غير أن هذه العلاقة بين الانسان والطبيعة ليست جامدة « فلانسان يغير بيئته . ومن ثم يتغير تأثير على الانسان » . وقد عالج - لاثبات هذا -

ولد سير هالفورد ماكندر فى جيتزبره بلنكولنشر عام ١٨٦١ حيث كان والده يمارس مهنة الطب . وتلقى علومه فى المدارس الثانوية الخاصة ثم كلية اسوم وكلية كنيسة انسيح فى جامعة اكسفورد (١٨٨٠ - ١٨٨٥) . وقد أظهر ماكندر ميلا نحو دراسة الجغرافيا والبحث العلمى وهو فى جامعة اكسفورد ، واسترعى انتباه جالتون أمين عام الجمعية الجغرافية البريطانية بمحاضرات اضافية كان يلقيها ماكندر عن « الجغرافيا الحديثة » . وكان جالتون حينئذ يتفاوض مع جامعتى اكسفورد وكمبردج حول تأسيس دراسة منهجية متخصصة فى الجغرافيا فيهما . ومن ثم فقد ادعى ماكندر لالقاء محاضرة حول ما يعنيه بالجغرافيا الحديثة فى الجمعية الجغرافية . فألقى محاضرة بعنوان « مجال الجغرافيا ومناهجها » فى فبراير ١٨٨٧ . وقد اعتبرت هذه المحاضرة « ايذاءً بفتاح عهد جديد فى الجمعية » كما قال أحد أمناء الجمعية . اذ بها انتقلت الجغرافيا فى الجمعية من مرحلة

مرجع أساسيا في الموضوع وقتا طويلا .

ثم ألقى محاضرة في الجمعية الجغرافية بعنوان متواضع هو « الأساس الجغرافي للتاريخ » في سبتمبر ١٩٠٤ ، ما لبثت أن سافت اليه شهرة ثم يكن يتوقعها . وتعتبر هذه المحاضرة (التي نشرت في مجلة الجمعية الجغرافية Geog Journal في عدد ابريل ١٩٠٤) أساسا نظريه مشهورة في الجيوبوليطيقا ، سنتناولها بشرح والتعليق فيما بعد ، كان لها أثر كبير نيس في بريطانيا ، بل في القارة الأوروبية أيضا ، حيث أثارت - بعد عرضها ونعيقها في كتاب « المثل الديموقراطية والواقع » كثيرا من الجدل ، وأنشأت مدرسة الجيوبوليطيقا الألمانية التي يعتبرها بعض الكتاب مسئولة عن النزعة التوسعية النازية فيما بين الحربين العالميتين ، ومن ثم كان الاقبال الشديد - مرة أخرى - في أعقاب الحرب العالمية الثانية نحو نشر كتاب هالفورد ماكندر في بريطانيا وأمريكا ، ودراسته .

لقد كانت لدى هالفورد ماكندر نزعة قوية نحو التحليق فوق الجزريات ، والتصور العالمي للعلاقات المكانية ، انتهت بصاحبها الى تشكيل فلسفة جغرافية سياسية خاصة ، عبر عنها أولا في محاضراته المذكورة عام ١٩٠٤ ، ثم شرحها وعمقها في كتاب « المثل الديموقراطية والواقع الذي Democratic Ideals and Reality نشر عام ١٩١٩ ليكون نذيرا لأعضاء مؤتمر السلم المتفقد حينئذ في جنيف ، وليذكرهم بالحقائق الجغرافية الكبرى التي تهيمن من حيث لا يشعرون على سير التاريخ وعلى سياسة الدول المختلفة . . كان ماكندر متنبئا حين أشار الى القسوة

جغرافية جنوب شرق انجلترا ، وشبه القارة الهندية . وقد عمل ماكندر على وضع اسس علم يحفز دارسيه على فحص العلاقات السببية للمظاهر الطبيعية ، وأن يتجاوز أوجه الشبه السطحية ، ويرى علاقات جديدة .

ويبدو أن ماكندر ذهل من هذا الحماس الذي قوبلت به آراؤه ، رغم أنه كانت شيئا عاديا في أوساط القارة الأوروبية العلمية حينذاك . ويرجع هذا الى سلامة المنطق وقوة الافق التي عرضها بها ماكندر لمواطنيه .

وفد اجتذبت محاضرات ماكندر كثيرا من المستمعين ، وكان لمحاضراته في الجغرافيا التاريخية وقع خاص ، ولهذا اهتم بها فيما بعد اهتماما خاصا . وقد استعير في محاضراته الرئيسية أمام الاتحاد البريطاني لتقدم العلوم عام ١٨٩٥ تعبير الجغرافيا البشرية Anthropolgeography لراتزل ، وأعلن أن الجغرافي البشري هو أكثر الجغرافيين مثالية واكتمالا . ورأى أن تقدم الجغرافيا لن يتم قبل أن ينشأ قسم خاص لدراستها اما تحت اشراف الجمعية الجغرافية ، أو في الجامعة . ونجح في انشاء هذا القسم بجامعة اكسفورد ، ولكي يستكمل شكل الجغرافي في نظر مواطنيه ، قام برحلة الى شرق افريقية وتسلق جبل كينيا . وكأنما لا يكون المرء جغرافيا قبل أن يكون مغامرا ومكتشفا ! وقد ضمن ماكندر دراسته في الجغرافيا التاريخية ، في كتابه المعروف « بريطانيا والبحار البريطانية » الذي نشر عام ١٩٠٢ . وهو نتيجة قراءات واسعة وفكر ثاقب . استوعب فيه جغرافية الجزر البريطانية بايجاز معجز ثم عرض للتاريخ البريطاني من حيث علاقته بهذه الجغرافية . وقد ظل هذا الكتاب

الكامنة فى « قلب العالم » عندما انتظم فى دولة كبيرة هى روسيا القيصرية ، وقد امتد به الأجل ليعيد نبوءته مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية « ان كل الدلائل تشير الى أن روسيا اذا خرجت منتصرة من هذه الحرب ، فانها ستبوء مقعدها كأكبر دولة فى العالم . وفوق ذلك فانها ستكون أقوى الدول العظمى من ناحية مركزها الدفاعى والاستراتيجى . فقلب العالم هو أعظم قلعة طبيعية فى العالم . وانها - لأول مرة فى التاريخ - تجمع من القوة الحربية ما هو كاف عددا وعددا ، ^(١) . ولا تعدو الحقيقة اذا قلنا ان هذه النظرية تكمن وراء الاستراتيجيات العالمية للدول الكبرى - وعلى الأخص الدولتين العملاقين فى العالم فى الوقت الحاضر : الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة الأمريكية .

لقد حاضر ماكندر فى جامعة اكسفورد حيث أسس مدرسة الجغرافيا بها ، التى تعتبر أول مدرسة للجغرافيا فى الجامعات البريطانية من ١٨٨٧ الى ١٩٠٥ ، وتولى منصب مدير جامعة ردينج بين عامى ١٨٩٢ - ١٩٠٣ ، وكان أحد مؤسسى الاتحاد الجغرافى عام ١٨٩٣ ورئيسا لشعبة الجغرافيا فى الاتحاد البريطانى لتقدم العلوم عام ١٨٩٥ . وتولى ادارة مدرسة لندن للعلوم الاقتصادية والسياسية بين عامى ١٩٠٣ و ١٩٠٨ . ثم استادا لكرسى الجغرافيا فى جامعة لندن بين عامى ١٩٠٠ - ١٩٢٦ .

ودخل الحياة السياسية العامة ، اذ انتخب عضوا فى مجلس العموم لاحدى دوائر جلاسجو من عام ١٩١٠ الى عام ١٩٢٠ . وأشرف على

التجنيد فى اسكتلندة ، ثم حركة ادخار الحرب عام ١٩١٥ - ١٩١٦ . ثم تولى منصب المندوب السامى البريطانى فى جنوب روسيا عام ١٩١٩ - ١٩٢٠ . وأصبح رئيسا للجنة النقل البحرى البريطانى (١٩٢٠ - ١٩٣٩) واللجنة الاقتصادية الامبراطورية (١٩٢٦ - ١٩٣١) وأخيرا أصبح عضوا فى المجلس المخصوص عام ١٩٢٦ . وتوفى عام ١٩٤٧ .

عندما ينظر المؤرخون فى المستقبل البعيد الى تاريخ عالمنا بشكل مجتزئ مضغوط ، كما تنظر الى عهد الأسرات المصرية ، فانهم سيصفون القرون الأربعة الماضية من تاريخنا بأنها العصر الكولومبى ، وهو العصر الذى بدأ بكشف العالم الجديد ، والذى نشطت فيه حركة الكشف الجغرافى ، وقد انتهى هذا العصر فى مطلع هذا القرن ، ولم تعد هناك مناطق لم تكتشف ، حتى المناطق القطبية، ارتادها المكتشفون أعضاء رحلات نانسن دسكوت . لقد تمت معرفة أركان العالم جميعا ، ولم تبقى الا الدراسة التفصيلية لأجزائه المختلفة ، والتطلع الفلسفى لهذا العالم الجغرافى . ويبدو أن هذا القرن قد اختتم عهدا عظيما مليئا بالحركة والنشاط ، خرج فيه الرائد المكتشف، ودعا قومه الى بقعة جديدة لم يكن للناس فى العالم المتمددين بها عهد ، فقبه المبرر الذى يبحث عن أرواح يستنقذها ، والغاوى الذى يغنى الضم والسيطرة ، والفلاح الذى يبنى وطنًا جديدا يفلح أرضه ، والمعدن الباحث عن الثروة الدفينة فى بطن الثرى ، وأخيرا المهندس الذى يبنى ويشيد . كل هؤلاء خرجوا فى اثر الرحالة . والآن لا مكان فى أوروبا أو الأمريكتين أو افريقية أو استراليا أو جزر المحيط لمدع ملكية جديد .

ولكنه - لهذا الغرض - نظم القوة الفرنسية ،
التي أنكرت على غيرها مبدأ الحرية . وبذلك
وقعت فيما يشبه المأساة الاغريقية .

ثم عدت أوروبا الى ما يشبه هذا المزاج من
التطلع الى اسل عام ١٨٤٨ ، فاضفت الى مبدأ
الحرية مبدأ القومية ، عسى أن تحمي القومية
حرية الشعوب من عدوان المعتدين . غير أن
القدر أوجد سمارك الذي قلب مبدأ القومية ،
كم قلب نابليون مبدى الحرية والاخاء والمساواة
وقاد الشعب الألماني ونظمه وهياه للسيطرة ونشر
الثقافة Kultur الألمانية .

وذهبت شعوب العالم الديمقراطية أنها رأت
منارا كبيرا للحرية يبرز . عام ١٩١٧ ، عندما
قامت الثورة البلشفية وأسقطت القيصرية الروسية
ودخلت أمريكا الحرب الى جانب الحلفاء .

وسارت الثورة الروسية في مجراها ، ولكننا
لا نزال نأمل في ديمقراطية عالمية . ولقد أضفنا
الى مثاليات الحرية والمساواة والاخاء في القرن
الثامن عشر ، والى مثاليات القومية في القرن
التاسع عشر ، فكرة عصبة الأمم (ومن بعدها
الأمم المتحدة) في القرن العشرين ، وإذا نشبت
حرب ثالثة ، فستكون أعظم مدى من سابقتها ،
فإن المثل الديمقراطية اليوم أصبحت عقيدة
للجزء الأكبر من الانسانية .

المثاليون هم ملح الارض ، بدونهم يتوقف
المجتمع عن سيره ، ويصفيه الركود ، وتضمحل
المدنية . غير أن المثالية اقترنت دائما بمزاجين
مختلفين ، المثالية القديمة مثل البوذية والصوفية
ومسيحية القرون الوسطى اقترنت بنكران الذات
كما يمثلها الاخوة الفرنسيسكان الذين وهبوا
أنفسهم للفقير والفقر والخدمة ، أما المثالية

لقد تم اكتشاف العالم وتم تقسيمه بين الوحدات
السياسية المختلفة . بل ان آسيا شهدت بدورها
آخر تحركات فرنسا البرمالة والقوزاق في داخلية
آسيا البعيدة ، بعد أن مهدت رحلات فيسكو دا جيه
لهذا الفتح . لقد كان العصر الملوكومبي عصر
توسع أوروبا أمام مقاومه لا تذكر في العالم
الجديد ، وداخلية افريقية وآسيا وجزر المحيط
الهادي . بينما كانت أوروبا امسيحية في العصور
الوسطى يتهددها خطر القبائل المتبربرة الراحفة
من الشرق . هذا التوسع والتعمير قد أوجد
موقفا جديدا لم يكن للعالم به عهد من قبل .
فأى تغير اجتماعي كبير سيكون له أثر بعيد في
عالم تماسكت أطرافه سياسيا واجتماعيا واقتصاديا .
اذ سيصبح كالقنبلة التي لا تفجر في فضاء ، بل
بين المباني المزدهمة أو وسط سفينة .

ويبدو أننا في الوقت الحاضر نجد أنفسنا
لأول مرة في مركز يسمح بضلاقي تعميمات
جغرافية كبيرة على أحداث تاريخية كبيرة أيضا .
نحن لأول مرة في موقف يسمح بأن نرى الأبعاد
الحقيقية للأحداث التي تجري على مسرح العالم ،
ونبحث عن تحليل جغرافي للتاريخ المعنى ، ومن
الممكن أن تكون لها قيمة عملية ، حيث انها
سترى عن بعد - في نظرة شاملة - بعض القوى
المتنافسة في السياسة الدولية .

ان العالم ليرنو دائما نحو مثل عليا في
الديمقراطية ، ولكنه في نفس الوقت يصطدم
بواقع ضخم من صنع الطبيعة . ففي عام ١٧٨٩
بزغت من عقول أهل باريس رؤى الحرية
والمساواة والاخاء ، ولكن هذه المثالية تجاهلت
الواقع فما لبثت أن وقعت في يد قدرها المحتوم ،
نابليون بونابرت ، الذي أعاد النظام الى البلاد ،

الحديثة ، مثالية الديمقراطية كما دعت إليها الثورتان الأمريكية والفرنسية ، فهي تقوم على تحقيق الذات ، وتهدف الى أن يعيش كل انسان حياة كاملة موفورة الكرامة .

وكان كل مزاج من هذين المزاجين يرتبط تاريخيا بواقع مختلف عن واقع المزاج الآخر . ففي العصور القديمة كانت الطبيعة أقوى من الانسان ، وكانت عناصرها تحد من آفاق طموحه ، ولم يكن أمامه الا أن يسلم صاغرا لارادتها ، وكان القليلون الذين يحصلون على شيء من الحرية ، انما يفعلون ذلك على حساب رق الآخرين . حتى ديموقراطية أثينا لم تتم الا على نظام الرقيق الذين كانوا يعملون خدما في المنازل أو عمالا في المصانع . أما العالم الحالي فهو غني ، قد استطاع الانسان فيه أن يتحرر من ربة الطبيعة ، بل واستطاع أن يسخر قواها لخدمته ، فتطلعت مجتمعات بأكملها ، بشيء من العلم والتنظيم ، الى حياة أفضل ، فيها تقسيم للثروة أدنى الى العدالة ، وتكافؤ للفرص أمام الجميع . هذه السيطرة على الطبيعة لم تكن وليدة تقدم العلم والمعرفة فحسب ، ولكنها ترجع الى تقسيم العمل وتنظيمه ، والى اصلاح أداة المجتمع اصلاحا مستمرا . وبعبارة أخرى ، فإن الثروة الحديثة ، والرفاهية التي تعرفها المدينة الحالية ، وسيطرة الانسان على الطبيعة وتسخيرها ، كل هذا يتوقف على حسن الإدارة والتنظيم . وليس المجتمع سوى « مشروع » يحتاج لتنظيم سواء المنتج لإدارته .

فالقوة المنتجة باختصار هي أهم عامل من عوامل الواقع في المدينة الحديثة ، هي أهم من تكديس الثروة ، لأنها هي التي تعمل وتنتج

الثروة . والقوة المنتجة تحتاج لمنظم ، وهذا المنظم هو القائد ، سواء في السياسة أو الاقتصاد أو الصناعة . ولا بد لهذا المنظم من مثل يهتدى به ، ولكنه أيضا يرتطم بواقع . وهذا الواقع هو ما نحاول أن نبينه في هذه الصفحات . وهو واقع جغرافي واقتصادي . غير أن هناك فرقا بين مجرد الدراسة الأكاديمية ، وبين استيعاب الدروس المستفادة من هذا الواقع والتي تدفع الى العمل .

وسأحاول أن أبين الظاهرات الطبيعية التي أرى أنها كانت ذات أثر في النشاط البشري ، وأقدم بعض مراحل التاريخ الرئيسية التي ارتبطت بها ارتباطا عضويا . وليس من هدفى أن أنقل أثر هذه الظاهرة أو تلك على النشاط البشري ، أو أقوم بدراسة اقليمية ، ولكن أرجو أن أبين أن التاريخ جزء من حياة العالم القصوى . وانى لأدرك تماما أنني ساقبل الى إحدى جوانب الحقيقة ، وليس عندي أية رغبة في أن أنزلق الى أية مدية متطرفة . فلانسان وليس الطبيعة هو المحرك والمدفع والفاعل . غير أن الطبيعة تضبط أعماله الى حد كبير . واهتمامنا منصب على العوامل الطبيعية العامة التي تضبط ، وليس على الأسباب التي سیرت موكب التاريخ العالمي . اننا نبحث بذكر تواضع عن أحد جوانب الحقيقة أو الواقع .

لقد ظلت حقائق انجغرافي الرئيسة دون تغير يذكر خلال الخمسين أو الستين قرنا من التاريخ الانساني المعروف . حقا لقد قطعت غابات وجفت مستنقعات ، واتسعت أو انكمشت صحارى ، غير أن معالم القارات ، وحدودها

هذا القول يشل التفكير ، فالعقائد التى تكون الأمم ، وتخرج بها من مجرد تجمعات بشرية ، قد اعتنقت تحت ضغط مؤثرات مشتركة ، وحاجة مشتركة بين هذه التجمعات لمقاومة ظروف قاهرة خارجية ، تضغط على أفرادها جميعا فى وقت واحد ، أى تحت ظروف خطر مشترك ، فلقد نشأت فكرة انجلترا تحت ضغط الغزاة الدان والنورمان ، وفرضت فكرة فرنسا فرضا على قبائل الفرنك والقوط والرومان تحت ضغط الهون فى شالون ، وخلال حرب المائة عام مع انجلترا ، وولدت فكرة المسيحية تحت ضغط الاضطهاد الرومانى ، وأنضجتها - بالنسبة لأوروبا - الحروب الصليبية ، وقبل الألمان الجنوبيون فكرة الرايخ الألماني على مضض بعد تصادمهم مع فرنسا . هذه النظرة الأوروبية للتاريخ تركز الانتباه على الآراء والمثل وما ينجم عنها من مدنيات ولكنها قد تنقل الحركات الأولية الأخرى ، التى كان لها تأثير على الجهود التى بذلت لتحقيق هذه المثل .

وجهة نظر البحار :

سنعرض الآن للعوامل المؤثرة فى تاريخ العالم من وجهة نظر البحار . ولنبدأ بأقدم مجتمع منظم على شكل دولة وهو مصر ، ولننظر أثر الماء فى حياتها السياسية . تصور واديا عميقا مشقوقا فى هضبة صحراوية جافة ، وهذا الوادى تغطيه طبقة سميكة من الطين الاسود فيها ثعبان فضى طويل طريقه مسافة خمسمائة ميل صالحة للملاحة . هذا هو نهر النيل الذى يشق الصحراء الكبرى بعد أن يتملص من الصيخور السوداء الضخمة التى تعترض سبيله ، حتى يصب فى البحر المتوسط فى دلتا مروجية واسعة .

والماء ، وسطح الأرض بما فيها من سلاسل جبلية وهضاب وسهول ووهاد لم تتغير الا فى تفاصيل طفيفة . وإن أثر الضوابط الجغرافية على النشاط البشرى لا يتوقف على تلك الحقائق التى نعرفها . وإنما على ما يتخيله الانسان أو يتصوره متعلق بها . فالمحيط هو المحيط منذ الأزل . غير أن الأهداف البشرية تصوره محيطين : شرقى وغربى ، كل منهما منفصل عن الآخر تماما ، حتى اذا اكتشف الانسان رأس الرجاء الصالح ، وعبره منذ أربعمائة عام ، عاد المحيط فأصبح واحدا مرة أخرى ، لقد كان المحيط واحدا باستمرار ، غير أن المعنى العملى لهذه الوحدة لم يدر بخلد الانسان الا منذ عهد قريب .

لكل عصر تصوره الجغرافى الخاص . ولقد عاشت أجيال لا ترى فى خريطة وسط افريقية سوى فراغ مجهول ، وعاشت أجيال أخرى تخشى سيطرة ألمانيا على العالم منطلقة من أرضها المستعمرة حديثا فى رسط افريقية . أما تصور القرن العشرين الجغرافى فهو يختلف عن التصورات السابقة فى عدة مسائل ، من أهمها استكمال المعرفة الجغرافية بالعالم من القطب الى القطب ، ومن طرف المحيط الشرقى الى طرفه الغربى . لقد تمت عملية اكتشاف العالم ، واكتملت خريطة العالم . ومن ثم فنحن فى وضع أفضل من سابقينا فى تصور قوى التاريخ المحركة .

لقد كان المؤرخ الراحل الاستاذ فريمان يقول ان التاريخ المهم الوحيد هو تاريخ السلاسل الأوروبية وسلاسل البحر المتوسط . وهذا الى حد ما صحيح ، فمن هنا انبثق الفكر اليونانى والرومانى الذى يسود العالم الآن . ولكن مثل

على نهر اليبتر ، ولكنه يشرف على أمة صغيرة من الفلاحين تزرع سهل لا تبوم العريض بين جبال الأبنين والبحر . وكانت روما نجتمع بين كونها جسرا عبر الجبال الى الجانب الآخر من شبه الجزيرة ، وميناء تنتهي اليها السفن التي تمر عبر باب البحر المتوسط ، وفوق ذلك كانت تملك انتاج الحقول الوفير من سهل لايبوم . وقد استطاعت روما أن تهزم قرطاجة ، وبذلك وحدت الحوض الغربى للبحر المتوسط ، ثم عبرت الفياق الرومانية مقدونيا الى آسيا الصغرى ووحدت المشرق الاغريقى والمغرب اللاتينى ، ومن ثم استمر البحر المتوسط طوال خمسة قرون بحرا مغلقا ، ومن ثم أيضا كانت روما امبراطورية قارية ، ولم تكن تملك أسطولا حربيا قويا لعدم حاجتها اليه .

بعد أربعة قرون من القوة البرية ، بدأت روما فى التدهور ، ولم تعد البحار التي تحيط بها مغلقة . فافتحمها النورز من فيورداتهم فى بحر الشمال ، وغزوا بحر الشمال ، وداروا حول بسكاي وافتحموا مضيق جبل طارق ، وأحاطوا بسفنهم شبه الجزيرة الكبيرة - أوروبا ، من الشمال والغرب والجنوب . واستولوا على مواطىء أقدام لهم فى بريطانيا شمالا وصقلية جنوبا ، بل وغامروا بغزو حواف شبه الجزيرة فى نورمانديا وجنوبى ايطاليا .

وفى نفس الوقت تقريبا خرج حداة الابل من بلاد العرب واستولوا على سوريا ومصر وقرطاجة ، أى الولايات الشرقية والجنوبية للامبراطورية ، ثم عبروا البحر الى صقلية ، واستولوا عليها ، كما استولوا على جزء كبير من شبه جزيرة ايبيريا . ولم يعد البحر المتوسط

ان المسافة عبر هذا الوادى من حافة النهضة الشرقية الى حافة النهضة الغربية تتراوح بين عشرة وعشرين ميلا . ا طرح الحقول الخضراء وراء ظهرك فلا ترى سوى الصحراء . هنا اجتمعت التربة الخصبة والماء الوفير وأشعة الشمس القوية : ومن ثم الخصب الكفيل بتغذية ملايين البشر . وهنا أيضا طريق مائى هادى لا يبعد عن أى حقول من حقول مصر أكثر من اثنى عشر ميلا أو أقل ، ومن ثم كانت السفن تهبط نحو الشمال مع انحدار النهر وجريان التيار ، وتصعد جنوبا تزجوها رياح الشمال « الأتيزية » . ومن ثم اجتمعت أيضا عناصر الخصب ، وخط المواصلات ، والقوة البشرية وسهولة تنظيمها . وتلك بذور الملك الرئيسية . والآن فلنتقل الى « البحر الكبير » أو البحر المتوسط ، حيث نفس عناصر القوة الطبيعية مثلما هى فى مصر ، بل على مقياس أكبر ، ومن ثم لم تقم مملكة مصر فقط ، بل الامبراطورية الرومانية التي تعتمد على طريق مائى كبير يمتد من الساحل الفينيقي مسافة ألفى ميل غربا حتى مضيق جبل طارق . وبينما كانت عناصر السكان فى مصر متجانسة ، اذ بهم متنوعون فى حوض البحر المتوسط ، بعضهم زارع راع ، وبعضهم ملاح يحمل التجارة . وتدل الأبحاث الحديثة على أن البحر الايجى - أو البحر الرئيسى كما يسميه الاغريق - كان المدرسة التي خرجت الملاحين فى التاريخ القديم . فهو بحر يغص بالجزر الصغيرة التي كان الملاحون يقفزون من واحدة منها الى الأخرى قبل أن يتعلموا المغامرة فى خضم البحر الكبير بعد ذلك .

وبدأت روما حصنا منيعا على رأس جسر

الشریان الرئيسی للامبراطورية، بل أصبح خندقاً مائياً ضخماً يفصل بين المسيحية والاسلام . وكما حققت قوة روما البحرية نصرها على قرطاجه ، كذلك حققت قوة العرب البحرية نصرهم على روما .

وظلت المسيحية في أوروبا ألف عام حيصة أشباه الجزر اللاتينية وملحقها في الجزيرة البريطانية . لقد كانت روما الكلاسيكية امبراطورية رومية^(١) (بحر متوسطة) بمعنى الكلمة ، لم تبعد كثيراً عنه، وقفت عند حد الراين والدانوب ، وكان اقتحام البحار من شمال أوروبا وجنوبها هو الذي كملها وجعلها شبه جزيرة واحدة بمعنى الكلمة . وكان على أوروبا أن تنظم ردود فعلها ضد الضغوط التي تعرضت لها من الشمال والجنوب ، والا لانمحت منها المسيحية . ومن ثم أماء شارلمان امبراطورية على جانبي الراين ، نصفا لاتيني ونصفها جرمانى اللغة ، ولكنها جميعاً تحت لواء كنيسة واحدة تتكلم اللاتينية . وكانت هذه الامبراطورية قاعدة الحروب الصليبية ، التي سارت طيلة قرنين من الزمن في اتجاهين : اتجاه بحرى من البندقية وجنوة نحو يافا وعكا على الساحل السورى من ناحية ، واتجاه برى من المجر عبر ممر مورافا ومارتزا الشهير الى القسطنطينية ، ومنها الى آسيا الصغرى فسوريا .

وهكذا تجمدت شعوب المدينة اللاتينية في ليل طويل من العصور المظلمة ، ظلت فيها حيصة القارة ، يحيط بها المسلمون من الجنوب والشعوب التتارية من الشرق . ولم تستطع أوروبا أن

تخرج من هذا المحبس الا فى القرن الخامس عشر عندما أصبح الوقت مهياً للمغامرات البحرية الكبرى ، وارتاد الأوروبيون البحر المحيط ، ونشروا أروبيتهم فى العالم أجمع . ويجدر بنا أن نقف قليلاً لتأمل البيئة الفريدة التى نمت فيها بذور المدنية الأوروبية الحديثة ، والتى أعطت هذه القارة قوة التحمل والصمود التى جعلتها تقود العالم الآن . وليست أوروبا سوى ركن صغير من الجزيرة الكبرى التى تشمل آسيا وأفريقيا ، غير أن مهد المدنية الأوروبية لم يشمل سوى نصف أوروبا - النصف اللاتينى وأشباه الجزر - والجزر التى تحيط به . وكانت الصحراء الكبرى تحمى هذه القارة من الجنوب، وهى صحراء عريضة ليس من السهل اختراقها على ظهور الابل الا خلال أشهر غير قليلة ، وقد حمت هذه الصحراء أوروبا من تغلغل الدماء الزنجية . أما الى الغرب فيقع المحيط العظيم الذى ظلت البشرية أزماناً طويلة تهاب الملاحة فيه . وإلى الشمال الشرقى غطاء من غابات الصنوبر لا حد له ، تقطعها أنهار تصب اما فى البحر المتجمد شمالاً ، أو تصب فى داخل القارة ، مثل الأنهار التى تصب فى بحر قزوين الداخلى ، ولم يكن ثمة طريق متفتح الى العالم الخارجى سوى طريق الجنوب الشرقى ، غير أن هذا الطريق كانت تقف دونه سدود بشرية ، من القرن السابع الى القرن التاسع عشر ، هى العرب والأتراك .

ومن ثم كانت أوروبا فكرة ذات حدود واضحة ، بينما هى بالنسبة للقارى مجرد ملحق لآسيا . كانت عالماً قائماً بذاته ، يمتاز بالخصب ، وبالممرات المائية التى تكتنف أجزائه المختلفة ، فتشعرهم بالآلفة التى تجمع أبناء الأسرة الواحدة.

(١) نقصد بتعبير رومى ما يسمى Mediterranean ، نسبة الى بحر الروم او البحر المتوسط (م . غلاب)

بعد فترة سكون كانت السيادة فيها لدول البحر
استمرت ألف سنة •

وكانت نتيجة ذلك كله ظهور قوة بريطانيا،
دولة بحرية كبرى ، تمخر أساطيلها من جزرها
في شمال المحيط الأطلنطي الى جزر اليابان في
شمال المحيط الهادى ، وكان لهذه الأساطيل
قواعد على طول الطرق الملاحية الكبرى ، سواء
حول افريقية ، أو عبر قناة السويس • وظهرت
قيمة القوة البحرية فى السرعة الفائقة التى
استطاعت فيها بريطانيا نقل جنودها الى جنوب
افريقية أثناء حرب البوير ، وفى وقوف الاسطول
البريطانى الى جانب القوة الامريكية فى ماينلا
(الفيلين) أثناء الحرب الاسبانية الامريكية ، اذ
تأكدت حينئذ معنى القوة البحرية ، والمرة الثالثة
عندما أحكمت الحصار حول الحرب الروسية
اليابانية ، وبذلك حافظت على سياسة الباب المفتوح
فى الصين • وفى كل حالة من هذه الحالات ،
كانت القوة البحرية هى الفيصل ، وهى التى
غيرت مجرى التاريخ • والحرب العالمية الأولى
نفسها كانت مثالا لأثر التفوق البحرى فى سير
الحروب • لقد تأكد لأول مرة وجود جزيرة
عالمية كبرى ، يمكن أن تدور حولها الأساطيل ،
ويمكن أن يكون لصاحب أقوى أسطول السيطرة
عليها •

ولننظر الآن الى جزيرة العالم هذه التى
أدركتها البشرية حديثا • انها تقع على كتف
العالم ، بالنسبة للقرب الشمالى ، واذا قيست من
القرب الى القرب على خط طول متوسط بالنسبة
لآسيا فاننا نجد ألف ميل من البحر المغطى بالجليد
حتى شواطئ سيبيريا الشمالية ، ثم خمسة آلاف
ميل من اليابس حتى الطرف الجنوبى للهند ،

وكانت لهذه المسلك المائية أهمية خاصة ، ولا
سيما فى عصر حلا من الطرق البرية (بعد أن
تخربت الطرق الرومانية) فهى تتفرع وتتشعب
بين أشباه الجزر والجزر العديدة التى تميز
غرب أوروبا •

وقد ساعد عاملان هاتمان على فك الحصار
المضروب على أوروبا العصور الوسطى ، العامل
الأول هو أن العرب والأتراك ، وقواعدهم هى
الواحات والأقاليم شبه الجافة ، لم تكن لديهم
موارد ضخمة من القوى البشرية ، فكان عددهم
محدودا دائما ، بينما كان النورز البحريون
المغامرون سرعان ما يندمجون فى سكان السهول
الخصبة فى انجلترا وفرنسا وشمال ألمانيا ،
ويغذون أعداد السكان فى غرب أوروبا ، ولم
يعد النورز الوثنيون خطرا دائما على غرب
أوروبا ، ومن ثم استكملت أوروبا المسيحية
جهودها نحو الخطر القابع فى الجنوب الشرقى
للقارة •

والعامل الثانى هو أن هؤلاء النورز حملوا
بذور المغامرات البحرية ، وسرعان ما تبنى
البرتغاليون فكرة البحث عن طريق بحرى الى
الهند ، ونشأت مجموعة من الملاحين مثل
كولومبس وفاسكو داجاما ارتادوا البحر المحيط ،
فاكتشف العالم الجديد ، وأهم من هذا تمت
الملاحة حول الجزيرة العالمية الكبرى ، ودارت
سفن البرتغال حول رأس الرجاء الصالح ،
وظهرت سفنهم فى بحر العرب ، ونافست سفن
العرب فى المحيط الهندى • وصادف هذا فترة
ضعف حلت بالعالم الاسلامى ، فلم يعد لأوروبا
منافس قوى فى « جزيرة العالم » ، وظهرت قوة
الدول البحرية وسيطرتها على البحار لأول مرة

اليهم جزء آخر من ١٦ جزءا في الجزر البريطانية واليابانية . ولا يعيش في قارات العالم الجديد - بعد أربعة قرون من الهجرة سوى جزء واحد من ١٦ جزءا . ولو استطاع الغرب الاوسط من الولايات المتحدة أن يطعم مائة مليون أخرى من البشر ، فإن وسط آسيا كفى بأن يضيف نفس الاضافة الى سكانه ، واذا ازداد سكان أمريكا المدارية في المستقبل ، فسيزداد أيضا - بنفس النسبة - سكان افريقية المدارية . أى أن هذه النسب السكانية بين جزيرة العالم وتوابعها ستظل محفوظة في المستقبل .

لقد أدرك الأمريكيون منذ عهد ولسون أنهم لا يستطيعون العزلة وحدهم بعيدا عن مسائل أوروبا ، وعليهم أن يكفوا عن التفكير في أوروبا وحدها منفصلة عن بقية الجزيرة الكبرى ، جزيرة العالم ، التي تكون جزءا منه .

وجهة نظر القارى :

لقد انتهى عصر الكشف الجغرافية الكبرى باكتشاف سواحل العالم ، وتأكدت وحدة البحار ، ولقد تمت مرحلة شبيهة بذلك ، تأكدت بها وحدة قارات العالم القديم من الداخل . ولننظر الآن الى تاريخ أوروبا باعتبارها ملحقة بآسيا والتاريخ الآسيوى . فتاريخ أوروبا بوجه من وجوهه ليس سوى نتيجة الصراع المرير ضد الغزو الآسيوى .

وتتصل أوروبا بآسيا من ناحية الشرق ، أى من ناحية روسيا . التي تعتبر أكبر تناقض في خريطة أوروبا السياسية . وهي وحدها تحتل نصف مساحة القارة . بينما غرب أوروبا مزدحم بعدد كبير من الدول صغيرة المساحة . وهي عبارة عن سهوب مموجة تتصل نحو وسط

ثم سبعة آلاف من المجر حتى غطاء الجليد الذى يغطى القارة القطبية الجنوبية . ولكن اذا قيست على خط طول يمر ببرتغال ، فانها تبلغ نحو ثلاثة آلاف وخمسمائة ميل ، والمسافة بين باريس وفلاديفوستك ستة آلاف ميل ونفس المسافة تفصل بين باريس ورأس الرجاء الصالح . ولولا وجود المحيط المتجمد الشمالى لاستطاع الملاحون من وقت طويل الدوران حول هذه الجزيرة .

وتنتهى جزيرة العالم من الشمال الشرقى والشمال الغربى بمعابر تصلها بالأمريكتين ، وقد تبدو لأول وهلة أوجه شبه بين جزيرة العالم (القديم) والأمريكتين ، ولكن فى الحقيقة مثل هذا التشابه سطحى وغير حقيقى . ان شواطئ افريقية الشمالية والشرقية لا تفصلها فى واقع الأمر عن آسيا أو أوروبا ، بل هناك استمرار بشرى بين الصحراء الكبرى وصحراء شبه جزيرة العرب ، وبين شعوب كل من القارتين على جانبى هذا النطاق ، كما أن هناك مثل هذا الاستمرار بين شعوب سواحل البحر المتوسط الأوروبية أو الافريقية .

اننا نستطيع أن نعتبر قارات العالم الجديد ، الأمريكتين واستراليا مجرد توابع لجزيرة العالم وليس هناك سوى محيط واحد يغطى ثلاثة أرباع الكرة الأرضية ، وقارة واحدة تغطى سدس الكرة الأرضية ، وجزر أخرى عديدة ، أكبرهما أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية تحف بجزيرة العالم . وهذه الجزيرة اذا ارتبطت أجزاؤها بعضها ببعض بوسائل المواصلات الحديثة لكونت حقيقة كبرى تعتمد على موارد هائلة للثروات الطبيعية - ان أكثر من ١٤ جزءا من ١٦ جزءا من البشرية تسكن هذه القارة الكبرى ، ويضاف

آسيا ، بينما غرب أوروبا مضرسة شديدة التضرس ، جزر واشباه جزر . ويبدو لنا لأول وهلة أن جغرافية روسيا تتفق مع تكوينها السياسى ، سهول واحدة ، سهـ صويل قارس واحد ، وصيف دفيء واحد ، أى تجانس تام فى السطح والمناخ . غير أن الخرائط التاريخية المتابعة تقص علينا شيئاً آخر . فارتباط دولة روسيا بالسهل الاوروبى الشرقى مسألة لا ترجع الا الى القرن الماضى فقط . وقبل هذا الوقت كانت توجد مجموعتان سياسيتان فى هذا السهل الكبير ، احدهما تحتل غابات الشمال والشمال الشرقى ، والأخرى تحتل استبس (حشائش) الجنوب والجنوب الشرقى . ويتصل بينهما خط يمتد من نهاية جبال الكربات الشمالية ويستمر شمالا وشمالا بشرق حتى قرب نهاية امتداد جبال أورال الجنوبية . وتقع موسكو الى الشمال قليلا من هذا الخط داخل نطاق الغابات . وكان هناك برزخ مفتوح بين البحر البلطى فى الشمال وبين البحر الاسود فى الجنوب عرضه ٨٠٠ ميل . ويضاف الى هذا امتداد لاقليم الاستبس فى سهل المجر ، بين الكربات وجبال الألب ، يطلق عليه اقليم الملتقى (البوست) .

لقد نشأت روسيا وبولنده القديمتان فى كنف الغابات . أما الاستبس المكشوفة فكانت بابا مفتوحا نحو المجهول الآسيوى . بابا يقع بين جبال أورال وبحر قزوين ، تتبعت عبره هجرات الشعوب الرعوية من القرن الخامس الى القرن السادس عشر ، هجرات الهون والآفار والبلغار والمجر والخزر والباتريناك وانكومان والمغول والقلمق . وقد استطاع الهون بقيادة أتيل أن يوطدا أقدامهم وسط البوسنا Russ

فى نهاية الاستبس على ضفاف الدانوب ، ومن هذه القاعدة وجهوا الضربات شمالا وغربا وجنوبا بغرب ضد كل الشعوب الاوروبية المستقرة ، وتكون هذه الضربات المتوالية ، وتلك الغزوات والهجرات جزءا كبيرا من تاريخ أوروبا ، فالانجليز والساكسون - تحت ضغط هذه الهجمات - اضطروا الى عبور المانش حيث أسسوا ملك انجلترا وقوميتها ، والفرانك والقوط والرومان اضطروا الى التكتل صفا واحدا فى معركة شالون ضد الغزاة الآسيويين ، ومن ثم صنعوا قومية فرنسا . وعندما سقطت اكويل وبادوا نهضت البندقية ، بل ان البابوية اكتسبت صيتا كبيرا عندما استطاع البابا ليو أن يقف أمام أتيل فى ميلان .

وجاء الآفار بعد الهون ، وتأسس الرايخ الشرقى أو النمسا حدا شرقيا أمام هؤلاء الرعاة . وأسس شارلمان فينا المحصنة بعد غزواته العديدة فى وجه الآفار . ومن بعد الآفار قدم المجر ، الذين شنوا غزواتهم المستمرة من سهل هنغاريا . كما أسس البلغار - وهم من رعاة الاستبس أيضا - طبقة حاكمية جنوبى الدانوب ، واحتل الخزر جنوبى روسيا ، وكان الخزر أكثر الشعوب الرعوية احتكاكا بالروس ، وأكثرها تأثيرا فيهم . بل لقد كان العرب فى العصور الوسطى يسمون بحر قزوين ببحر الخزر . وأخيرا وصلت جحافل جديدة من منغوليا ، وخضعت روسيا فترة قرنين من الزمان لخانات مغول الكبشاق أو الاستبس ، قبع خلالها الروس داخل نطاق غاباتهم ، بينما يمد الخان امبراطوريته من وسط آسيا حتى جبال الكربات . وبذلك تأخر تكوين روسيا السياسى فى الوقت الذى كانت فيه

بنية القوميات الأوروبية تستكمل عناصرها •

وعلينا أن نتذكر أن معظم أنهار روسيا تنبع من الشمال وتصب في الجنوب ، في بحر قزوين والبحر الأسود ، وقد حملت هذه الأنهار معهم دعاة المسيحية ، كما حملت بعض الغزوات النوردية ، ولكن هذه الغزوات أحداث قليلة لا تنفي القاعدة العامة •

لقد خرجت سلسلة من الغزاة الفرسان من آسيا عبر البوابة الشرقية الواسعة لأوروبا نحو جنوب روسيا والمجر ، مدة ألف سنة ، وكانت تلك الغزوات هي سر تاريخ الروس والألمان والفرنسيين والإيطاليين والأغريق البيزنطيين • كما أثارت تلك الغزوات ردود فعل قوية ، وذلك لأن قوة الفرسان كانت تتحطم عندما يخرجون من الاستبس وكانت تتبدد بين أشجار الغابات وممرات الجبال •

كانت أوروبا تقع بين المطرقة والسندان ، بين غزوات الهون والتتار ، فرسان البر من الشرق ، وبين غزوات الفينجج • قراصنة البحر من الشمال ، غير أن هؤلاء الآخرين كانت حركتهم محدودة بحدود السواحل البحرية • ولكن هذين الضغطين لم يكونا شاملين ، بل شكلا فقط عاملا مثيرا ومنتشطا للعمل • فتحت ضغط القراصنة ، اضطرت إنجلترا وفرنسا للاتحاد ، وتحت ضغط فرسان الاستبس اضطرت الجرمان للاتحاد •

ولم يكن الهون هم أول من دفع الاستبس من غزاة ، فلقد سبقهم الاسكيديون الذين وصفهم هومر وهيرودوت ، بأنهم شعب عريض الرأس ، يشرب اللبن ويركب الخيل • ونذكر قلب العالم الآسيوي جاف مقفر • ونذكر

لم يكن غريبا أن يسكن ثلثا العالم القديم في مساحات محدودة على حوافه • إذ يمتد حزام من الأرض القفر من الصحراء الكبرى الى وسط آسيا ، يفصل شمال افريقية (البحر المتوسط) عن افريقية الزنجية ، والصحراء في الحقيقة هي حدود أوروبا الجنوبية •

مساحة كتلة اوراسيا بين المحيط والصحراء ٢١ مليون ميلا مربعا ، أي نصف مساحة الكرة الأرضية باستثناء الصحاري • والأنهار قليلة الجددى في الجزء الأكبر من آسيا ، فأنهار الفولجا وسيحون وجيحون تصب في بحر قارم داخلى ، وأنهار أوبى وينسي ولينا تصب في المحيط المتجمد الشمالى •

ووسط آسيا وطن سكان مخلخلين ، رعاة ، فرسان خيل وحداة ابل ، يتجولون وسط افليم حشائش شبه جاف ، أو أشباه صحارى ، لا تعمرها الا واحات قليلة متناثرة يمتد أربعة آلاف ميل من بوستا المجر حتى جبال جوبى الصغرى في منشوريا • ووسط العالم القديم هذا لا تقطعه أنهار تصب في المحيطات ، أى أنهار تجارية •

ان الزوبعة التى هبت على أوروبا من منتصف القرن الرابع عشر بدأت من هضاب منغوليا بقيادة جنكيز خان ، وقد وصلت احدى جحافل التتار الى بولنده وسيليزيا ومورافيا والمجر وكرواتيا والصرب ، واحتل جنكيزخان كبشاق (الاستبس) من بحر آرال حتى سفوح جبال الكربات ، وانحدرت فرقة اخرى جنوب بغرب من بحر قزوين وهندكوش الى فارس والعراق ثم سوريا • وفرقة ثالثة ضربت نحو شمال الصين (كائان) ثم جنوب الصين في عهد تيمورلنك • هذا هو قلب العالم ، كان يموج دائما

بالحركة والاضطراب ، ويرسل الغزوات ويدك
عروا . هبت المستقرة على حوافه ، وذلك
بفضل ما أوتى من قوة ضاربة متحركة . لقد
أحست حواف العالم القديم بقوة الاستبس ،
أحست بها روسيا وفرنسا والهند والصين ، التي
خضعت مباشرة للأسر الحاكمة المغولية ، أو
دفعت لها الجزية ، وقت آخر خلال تاريخها
الطويل . فلقد خضعت الصين عدة مرات لغزوات
قدمت إليها من الشمال ، كما خضعت الهند عدة
مرات أيضا لغزوات دخلتها من الشمال الغربي ،
وكذلك فعلت فارس ، وقد سبق الترك السلاجقة
والم توسط ، والأحمر ، والخليج الفارسي (أى
إقليم الشرق الأدنى) .

إلى الشرق والجنوب والغرب من قلب
العالم heart land منطقة هامشية على شكل
هلال كبير ، يستطيع ربانة السفن الهبوط إليه ،
والالتفاف حوله ؟ والغريب أن هذه المنطقة
الهامشية تتفق مع مناطق الديانات الكبرى ،
البوذية والبرهمانية ، والإسلام والمسيحية . الأولى
والثانية في العالم الموسمي ، شرقا وجنوبا ،
والرابعة في أوروبا التي يسقط عليها المطر طول
العالم ، أما الثالثة فتتفق مع منطقة البحار الخمسة ،
الشرق الأدنى ، تفترق إلى المطر الغزير ، ولذلك
كانت قليلة السكان . وهي تجمع بين صفات
الهامش الخصب والقلب المتفر ، لا تغطيها الغابات ،
وتكتنفها الصحارى ، ولذلك كانت صالحة
لحركات البدو . ولهذا السبب ، ولأنها هامشية
تطل على بحار وخلجان وتجرى فيها أنهار محيطية
تصب في بحار (دجلة والفرات والنيل) .
قامت فيها قوى بحرية . ومن ثم أيضا كانت
موطن امبراطوريات بحرية تعتمد على قواعد

زراعية كبيرة السكان كانت تقوم من حين إلى
آخر في التاريخ ، مثل مصر وبنينا وكريت
وروما ، بل والدولة العربية الإسلامية . وكانت
واحات مصر وبابل ذات اتصالات بحرية مع بقية
العالم المتمدين في البحر المتوسط والهند . ولكن
هذه الامبراطوريات - كما يجب أن تتوقع -
كانت في متناول يد غزوات الاسيديين والترك
والمغول من وسط آسيا ، أو مطمعا لاهل البحر
المتوسط للسيطرة على الممرات المائية التي تصل
بين الشرق والغرب وهذه هي نقط ضعف هذه
الحلقة من حلقات المديان القديمة . فعندما كان
الضعف يدب في مصر أو بلاد الرافدين ، كان
بدو الاستبس يستجمعون قواهم ، ويقفزون من
ايران وآسيا الصغرى إلى سوريا ثم إلى مصر .
كما كانوا ينفذون من آسيا الصغرى عبر البوسفور
والدرديل إلى المجر .

وينبغي أن نشير إلى الفرق بين العرب
والترك في سيطرتهم على الشرق الأدنى . فالعرب
فرع من الشعوب السامية ، سكان الفرات
والنيل وعدد من الواحات الصغرى ، استخدموا
وسائل الحركة المتوافرة لديهم ، الخيل والابل
من ناحية والسفن من ناحية أخرى ، في خلق
امبراطورية كبرى . وكانت أساطيلهم تسيطر
وقتا ما على البحر المتوسط حتى اسبانيا ، وعلى
المحيط الهندي حتى جزر الملايو . وقد حاول
العرب ، من هذا الموقع الاستراتيجي بين المحيطات
الشرقية والغربية ، فتح كل الأراضي الهامشية
للعالم القديم ، مقلدين في ذلك الاسكندر ،
وسابقين لنابليون . أما القبائل الطورانية الوثنية
في قلب آسيا القلق ، فكانوا غرباء عن ذلك تماما ،
لا يشبهون العرب أو الأوروبيين أو الهنود أو

الصينيين ، محطمين للحضارة لا بناء لها أو حافظين .

المنافسة بين البر والبحر :

الحركة فى المحيطات هى المنافس الطبيعى للحركة فى وسط القارة ، والسفينة التى تمخر عباب الماء تقابل الحصان أو النجمل الذى يقطع مسافة القلوات . وقد قامت على الأنهار الملاحية التى تصب فى البحار والمحيطات حضارات رائعة، مثل حضارة الصين على نهر يانجتسى ، والهند على نهر الجانج ، وبابل على الفرات ، ومصر على النيل . وكانت الملاحة فى البحر المتوسط أساس نشأة الدول البحرية : الفينيقيين والاعريق والرومان والعرب . وكان الفايكنج يسيطرون على ملاحه سواحل شمال أوروبا وغربها .

وتكمن أهمية اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح . تكمن فى أنه ربط لأول مرة الملاحة فى غرب أوروبا بالملاحة فى المحيطات الشرقية ، ربط الأطلنطى بالهندي والهادى . وبدلك منح الملاحون الكولومبيون (الذين ينتمون الى عصر كولبس) الحضارة الغربية الوليدة سهولة عظيمة فى الحركة فكانت السفن الاوروبية تستطيع أن تظهر فى أى مكان ، على أى ساحل ، فالبحر الكبير يحيط بكل السواحل . وهذه الحركة تعادل حركة فرسان الاستبس أو حداة الابل فى وسط القارة . ففكرة البحر المحيط ، والوحدة البحرية هى التى هأت الظروف للسيادة البحرية، وهى التى تعتمد عليها كل نظريات الاستراتيجية البحرية الحديثة مثل نظرية ماهان . وكانت نتيجة هذا التطور البحرى الكبير هى قلب العلاقة بين أوروبا وآسيا . وقد رأينا كيف أن أوروبا فى العصور الوسطى كانت

محصورة بين صحراء لا يمكن عبورها فى الجنوب ومحيط مجهول فى الغرب وفيافى جليدية أو غابية فى الشمال والشمال اشرقى ، ثم هى مهددة باستمرار من بابها الوحيد الذى يصلها بآسيا من الشرق ، والتفوق الكبير للفرسان وحداة الابل فى سرعة الحركة والانفضاض ، من سهول مكشوفة لا تعترضها بحار أو جبال أو غابات . أما بعد الكشف الكولومبى فقد خرجت أوروبا من هذا انحصار ، والتفت حول العالم ، وامكنها ان ترسى سفنها فى أى جزء من سواحلها ، وأصبحت تسيطر على ٣٠ ضعفا من مساحتها من الماء والسواحل ، وفرضت سيطرتها حول قوة أوراسيا البرية التى كانت دائما مصدر تهديد لها ، بل وأسست « أوروبات » جديدة عديدة فى الأراضي المكتشفة أو المفتوحة حديثا ، أو مايسمى بالعالم الجديد ، وأصبحت أمريكا وأستراليا توابع لأوراسيا كما كانت بريطانيا واسكنديناوه توابع لأوروبا . وأصبحت بريطانيا وكندا والولايات المتحدة وجنوب افريقية وأستراليا واليابان قواعد بحرية وتجارية للقوى البحرية الجديدة ، بعيدة عن متناول القوى البرية القديمة فى داخلية أوراسيا .

لقد بزغت قوى الدول البحرية الجديدة نتيجة لعصر الكشف الجغرافية . ولكن هل معنى ذلك أن قوة اليابس قد أفلت ؟ لا تزال قوة اليابس باقية . ولقد أكدت الأحداث الأخيرة ازدياد هذه القوة وتأكيدها ؛ فبينما كانت الدول البحرية الجديدة تجوب البحار ، وتنشئ المستعمرات معتمدة على قوة الأساطيل ، كانت روسيا تدفع الفرسان القوزاق من حدود غاباتها الشمالية ، نحو الشرق ، وسيطرت على الاستبس

وواجهت التار وأرغمت الرعاة على الاستقرار ، وبدأت في تغيير هذا الخضم الهائل من الحشائش في جنوب روسيا واقليم تركستان وسيبيريا الغربية . فالقرن الذي شهد توسع غرب أوروبا فوق البحار ، شهد أيضا توسع الروس من موسكو حتى سيبيريا . وكان اندفاع فرسان القوزاق عبر آسيا شرقا مليئا بالاحتمالات السياسية المستقبلية كما كان دوران السفن حول رأس الرجاء الصالح ، رغم انفصال كل من الحركتين عن الأخرى .

ولعل أكبر انشقاق حدث في أوروبا بين الشرق والغرب ، كان نتيجة فشل روما في صبغ اليونان بالصبغة اللاتينية ، ومن ثم نشأت الثقافة الغربية ، اللاتينية والثقافة الشرقية الاغريقية ، وكان الرومان أو الكنيسة الغربية الرومانية ، هم الذين حضروا التوتون ، بينما الاغريق هم الذين حضروا الصقالبة ، والتوتون ملاحو البحار ، والصقالبة فرسان الاستبس وقاهرو الطورانيين . ومن ثم تعمق الخلاف بين قوى البر وقوى البحر في معتقداتهم ، كما تعمق الخلاف بين القوتين في وسيلة حركتهم ومجال توسعهم . فالشرق والغرب ليس وليد اليوم ، ولكنه وليد ظروف تاريخية قديمة ، وظروف جغرافية فتحت أمام كل مجالا مختلفا ووسيلة مختلفة للتوسع والانتشار .

وعنده ، زادت منذ جيل^(١) سرعة الدول البحرية في تنقلها عبر عباب الماء باكتشاف البخار وشق قناة السويس ، مدت السكك الحديدية عبر قلب آسيا ، وقد أتى هذا الخط الحديدي

بالمعجزات ، لأنه فاق سرعة الحصان في الاستبس . بل وفاق السفن في نقل البضائع والسلع من المنتج الى المستهلك مباشرة ، بينا الطرق البحرية تحتاج الى أرصفة تصدير ثم أرصفة استيراد ثم مخازن مرة أخرى .

وبلغ طول السكة الحديدية الروسية من قربالن غرب حتى فلاديفوستك شرقا ٦٠٠٠ ميلا ، وان وجود الجيش الروسى في منشوريا دليل على قوة الحركة البرية ، مثلما كان وجود الجيش البريطانى في جنوب افريقية دليلا على القوة البحرية . ولا يزال هذا الخط مفردا ، غير مأمون العاقب باستمرار ، ولكن داخلية آسيا لن تلبث ضويلا حتى تغطيها السكك الحديدية ؛ ولا يزال الفراغ الكبير بين روسيا ومنغوليا مشحونا بالاحتمالات ، في السكان ، وزراعة القمح والقطن ، واستخراج الوقود والمعادن . ولا ريب أن هذا العالم الاقتصادى فى وسط آسيا سوف ينمو بعيدا عن متناول يد التجارة المحيطية ، والقوى البحرية^(٢) .

وبعد ، ألا يبدو من هذا العرض السريع لمجرى التاريخ أن هناك عاملا ثابتا ملحا من العلاقات الجغرافية يعمل باستمرار ؟ أليس هو هذه العقبة الكبرى التى تركز عليها سياسة العالم . هذه المنطقة الشاسعة من قلب أوراسيا ، التى لا تصل اليها سفن المحيط الآن ، والتى كانت مسرحا لكر الفرسان وفرهم ، والتى لن تلبث طويلا حتى تغطيها شبكة السكك الحديدية والطرق ؟

(٢) حققت الثورة البلشفية هذه النبوءة الى حد

٢ - منطقة الهلال الهامشي الداخلي
Interior Marginal Crescent ويشمل
أفريقيا والنمسا وغرب أوروبا وشرق الأدنى
والهند والصين .

٣ - منطقة الهلال الخارجي أو الجزري
Outer or Insular Crescent ويشمل
الأمريكتين وجنوب افريقية وأستراليا .
(انظر الخريطة المرفقة)

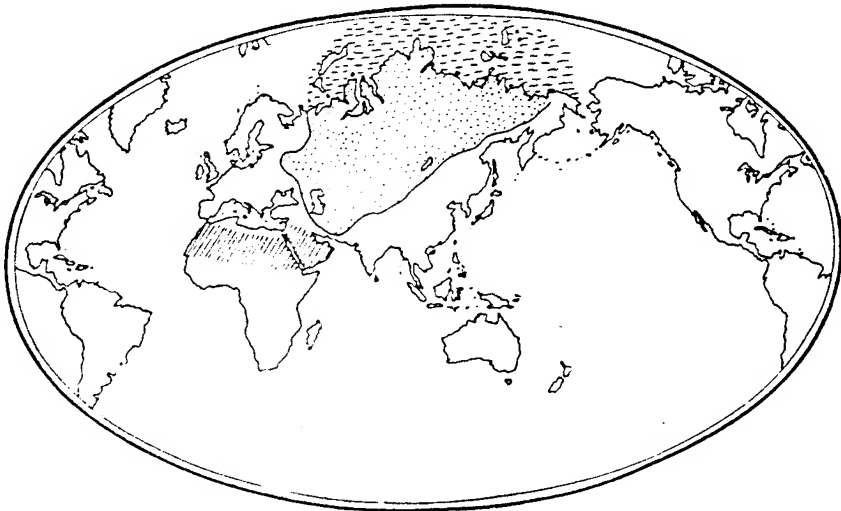
إن قلب العالم قارى ، وأطرافه جزرية ،
وبينهما منطقة انتقال وسطى ، وهذه المنطقة
الوسطى هي التي يمكن أن ترجح إحدى الكفتين
على الأخرى . وتتصارع كل من انقلب القارى
والأطراف الجزرية ، أو الدول القارية والدول
البحرية ، على منطقة الوسط هذه ، فإذا تم
لأحدهما تلك السيطرة ، خلصت له السيطرة على
العالم .

” انى أود أن أهمس فى أذن الجالسين فى
مؤتمر الصلح بباريس :
من يحكم أوروبا يتحكم فى قلب العالم .

هنا - فى قلب آسيا - تكمن احتمالات قوة
برية واقتصادية تفوق كل تصور : تمد حلت
روسيا الآن محل الامبراطورية المغولية ، ولقد
بدأت تدرس ضغطها على فنلندة واسكنديناود ،
وبولندة ودرس بل والهند والصين . ففى ليست
سوى حركة مركزية صادرة لمسرات رعدة
الاستبس . هي بالنسبة لعدم جعل المركز
المتوسط لآسيا فى أوروبا . تستطيع أن تضرب
فى كل اتجاه ، وتستقبل الضربات من كل اتجاه
ما عدا الشمال . ولن تغير أى ثورة اجتماعية فيها
من هذا الاتجاه . ولقد أدرك حكمها مصدر
قوتهم ، وزهدوا فى امتلاك الأسد ، أو أى
أرض أخرى خرج نطاقهم البرى ، كما تدرك
بريطانيا ضرورة سيادتها على البحار .

ينقسم العالم اذن من وجهة النظر
الاستراتيجية الى ثلاثة قطاعات :

١ - منطقة القلب أو مركز ثقل العالم
Pivot Area ، وتشمل معظم الاتحاد
السوفيتى الآن .



من يحكم قلب العالم يتحكم فى جزيرة العالم •

من يتحكم فى جزيرة العالم يحكم العالم ، (١) •

ولقد كان ماكندر متنبأ عام ١٩٠٤ حين قال ان ميزان القوى فى صالح قلب العالم نتيجة لتوسعه فوق الاراضى الهامشية فى أوراسيا ، وأن هذا سيمكنه من السيطرة على موارد اقتصادية هائلة ، ستمكنه من بناء الأساطيل ، وإذا تم به ذلك ، فلن يكون اليوم بعيدا الذى تضم فيه العالم امبراطورية واحدة ، وربما تحقق هذا اذا تحالفت ألمانيا مع روسيا ، ولقد امتد به الأجل ليعيد نفس النبوءة مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية كما سبق أن ذكره •

أثر ماكندر فى الجغرافيا السياسية :

لم يكن ماكندر هو أول من كتب فى الاستراتيجية العالمية ، أو فى الجغرافيا السياسية ، فقد سبقه الفرد ماهان (١٨٤٠ - ١٩١٤) ويعتبر كتابه « أثر البحر البحرية فى التاريخ (١٨٩٢) » أهم كتاب عبر فيه عن آراء فى الاستراتيجية العالمية ، ويظهر فى كتاب ماكندر أنه قرأ ماهان بل وتأثر به •

غير أن كتب ماهان كان متأثرا بالظروف الدولية التى كانت تسود العالم عند نشرها • ورغم أن هذه الظروف لم تتغير وقت أن كتب ماكندر مقالته فى مجلة الجمعية الجغرافية عام ١٩١٩ • إلا أنه كان من نفاذ البصيرة وسداد الراى • وبعد التفكير بحيث أدرك الظروف القارية التى تلعب دورها التاريخى

كما أدرك الظروف البحرية أيضا • فلم تسكره نشوة النصر « البحرية » عن رؤية القوى الكامنة فى قلب العالم القارى، رغم خروج روسيا منهزمة من الحرب العالمية الأولى •

وقد أثر كتاب ماكندر فى التفكير السياسى فى الولايات المتحدة وألمانيا ، فراجع نيقولاس سبيكمان ، أستاذ العلاقات الدولية بجامعة ييل آراءه ، وحاول أن يقلب ميزان القوى فى رأى ماكندر ، وقال ان « من يتحكم فى إقليم الحافة ، يتحكم فى أوراسيا ومن يتحكم فى أوراسيا يسيطر على العالم » (٢) •

أما تأثيره فى ألمانيا ، فكان عميقا : فيكنى أنه كان مثيرا لنشأة علم جديد هو الجيوبوليطيقا Geopolitics (٣) ، فى ألمانيا على يد كيرل هوسهوفر (١٨٦٩ - ١٩٤٦) وهو سياسى وجندى ورحلة وجغرافى ألماني ، كرس حياته لخدمة الاشتراكية الوطنية الألمانية (المازى) • واشترك مع أوتو مان فى انشاء مجلة الجيوبوليطيقا التى أخذت فى دراسة أقليم العالم دراسة جغرافية ، طبيعية وبشرية واقتصادية ، بغرض جمع المعلومات اللازمة عن أقليم ستقع فى نطاق الغزو الألمانى يوما ما •

وقد وضع هوسهوفر آراء ماكندر فى السيطرة على قلب العالم نصب عينيه ، ولذلك نصح بالتحالف مع الاتحاد السوفيتى من جهة ، وبالسيطرة على وسط أوروبا من جهة أخرى ، ومن ثم تستطيع ألمانيا أن تسيطر على بقية القارة الأوروبية • ولم يغب عن هوسهوفر لحظة واحدة

(١) Nicholas J. Spykman : The Geography of the Peace, 1944, p. 43.

(٢) الجيوبوليطيقا هى العلم الذى يسخر حقائق

الجغرافيا لخدمة أغراض الدولة الاستراتيجية •

الدرس الذى تلقاه نابليون فى روسيا ، ولذلك
كان يبحث لألمانيا عن مفر من أن تقع بين قواصة
البحر وفرسان البر . وهذا ما لم تستطع أن
تتحاشاه فى أواخر الحرب العالمية الثانية .

ان آراء ماكندر لا تزال محل الدراسة
حتى الآن ، بل والتطبيق أيضا . فإذا وضعنا
الولايات المتحدة محل بريطانيا وغرب أوروبا ،
سيده البحار ، وإذا اعتبرناه القوة البحرية
الهامشية الكبرى التى تحيط بجزيرة العالم
فإننا نستطيع بسهولة أن ندرك الصراع بين قوى
البحر الجديدة (الولايات المتحدة) وقوة البر
العلاقة التى تحتل قلب العالم . وليست سياسة
الأحلاف وانشاء القواعد العسكرية ، الا وسيلة

لتطويق هذا القلب ، نسبة أن يسيطر على بقية
جزيرة العالم ويصبح وجهها لوجه مع قوة
الأساطيل البحرية .

هذا هو الواقع الذى رسمه ماكندر لعالمنا
المعاصر . والذى تحاول الأمم أن تنال حريتها فى
إطاره ، فهل سيتصادم التين البحرى بالدب
الروسى . أم ستتعايش قوة البر وقوة البحر
أيا كانت الإجابة عن هذا السؤال ، فعلى أن
تذكر أن منطقة الوسط ، ومنها إقليم الشرق
الأدنى ، ستكون العامل المرجح لاحدى الكفتين
على الأخرى .

الدكتور محمد السيد غلاب